الباب الثاني

صفات رجال الإصلاح

obeikandl.com

obeikandl.com

صفات رجال الإصلاح وسماتهم الأساسية.

من أهم صفات رجال الإصلاح التي يجب أن تتوفر فيهم عند قيادة الأمة أهمها:

أولا. أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية حقة هي خاتمة الرسالات والشرائع.

فالله سبحانه وتعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسماوات، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه.

قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: ٢٥]، فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله وحقوق خلقه.

قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة: ٣]، بتمام النصر وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة والأصول والفروع ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية في أحكام الدين وأصوله وفروعه، هذا الكتاب المنزل منزل بالحق من الله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} [النساء: ١٠٥]، وهذا إخبار من الله تعالى أنه أنزل هذا الكتاب بالحق على عبده ورسوله ﷺ محفوظًا في إنزاله من الشياطين أن يتطرق منهم باطل، بل نزل بالحق ومشتملاً على الحق، فأخبار صدق وأوامره ونواهيه عدل.

هذا الكتاب محفوظ بحفظ الله عز وجل من التغيير والتبديل

والتحريف: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ } [الحجر: ٩]، أي في حال إنزاله وبعد إنزاله حافظون له من استراق السمع من كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله واستودعه في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغير فيها والزيادة، والنقص ومعانيه من التبديل، فلا يحرف محرف معنى من معانيه إلا ويقيض الله له من يبين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين.

ثانيا: أنهم أصحاب رسالة وحملة دعوة:

يحملون هذه الرسالة وهذه الدعوة ليخرجوا بها الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان واستبداد الطغيان إلى عدل الإسلام، هذه الرسالة جاءت لتعبيد الناس لربهم، فحملوا هذه الرسالة وبلغوها إلى الناس جميعًا لا يخشون في الله لومة لائم، قال تعالى: { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ } [الأحزاب: ٣٩]، وسيد الناس في هذا المقام بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم: { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } [الأعراف: ١٥٨].

ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته بعده فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله، وأفعاله، وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسره وعلانيته،

فرضي الله عنهم وأرضاهم، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم (١).

ثالثا: أنهم أصحاب عدل يقيمونه في الناس ليصلح الله به البلاد والعباد.

فالعدل أساس الملك، وروح الحياة وبه قامت السماوات والأرض، وبه عمارة الكون، وصلاح العباد ولذا حث عليه الإسلام، وجعله أساس الحكم بين الناس، قال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾} [النحل: ٩٠].

فهذه الآية جامعة مانعة، وهي من الآيات الجوامع التي لو لم ينزل في القرآن غيرها لكفت الناس جميعًا، عن الحسن أنه قرأ هذه الآية ثم قال: إن الله عز وجل جمع الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئًا إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئًا إلا جمعه.

ولهذا قال غير واحد، لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لكفت في كونها تبيانًا وبيانًا لكل شيء، ولعل إيرادها عقب قوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ} [النحل: ٨٩]، للتنبيه على هذا، فإنها إذا نُظر إلى أنها قد جمعت ما جمعت مع وجازتها استيقظت عيون البصائر وتحركت للنظر فيما عداها، وقد أمرت بثلاثة أشياء ونهت عن ثلاثة أشياء: أمرت بالعدل والإحسان وإيتاء

(١) ابن كثير ٣/٤٩٢.

ذي القربى، ونهت عن الفحشاء والمنكر والبغي.

أصحاب عدل يقيمونه في الناس كما أعلنها أبو بكر في أول يوم خطب الناس بعد تولي الخلافة: (القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرد الحق إليه، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم).

رابعا: أنهم أصحاب شريعة ربانية:

شريعة ظاهرة واضحة بينة، من وردها فهو كالذي يرد النهر الفياض المتدفق، فيشرب ماءً صافيًا من غير كبير عناء، ولا كثير تعب، ولا يخشى الشارب من نقصان الماء، ولا من تكدره، والشريعة الإسلامية غذاء للأرواح، وروح القلوب، وصلاح للفرد والمجتمع، ليس فيها شوب من باطل، ولا تتناقض أحكامها، ولا تتضارب أقوالها، ولا تضيق عن الحياة والأحياء، وهي كالطريق المستقيم الظاهر البين، ذلك أنها توصل إلى رضوان الله ورحمته وجنته، ولا يقوم غيرها مقامها.

يقول القرطبي: الشرعة والشريعة الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى النجاة، هذه الشريعة هي شريعة القرآن المنزلة على عبده ورسوله محمد ﷺ، وهي الشريعة الوحيدة التي من حقها أن تحكم وتسود.

قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾} [الجاثية: ١٨].

فإن في اتباعها السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون، أي الذين هويتهم غير ثاقبة للعلم ولا ماشية

خلقه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته، فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

خامسا: أنهم أصحاب سياسة شرعية جاءت لإصلاح الراعي والرعية.

اقتضاها الله عز وجل لمن أوجب نصبه من ولاة الأمور، وهي قائمة على العدل، قوله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾} [النساء: ٥٨].

{يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: ٥٩].

قال العلماء: نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، ونزلت الثانية في الرعية، عليهم أن يطيعوا أولى الأمر الفاعلين لذلك ما لم يؤمروا بمعصية، فإذا أمروا بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

فإن تنازعوا في شيء ردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإن لم تفعل ولاة الأمر ذلك، أطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله ورسوله، لأن ذلك من طاعة الله ورسوله، وأديت حقوقهم إليهم كما أمر الله ورسوله، قال تعالى: {وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ} [المائدة: ٢]، وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة، والولاية

الصالحة.

سادسًا. أنهم أصحاب أخلاق إسلامية.

قائمة على الإيمان بالله تعالى، جاءت لإصلاح الناس، قال ﷺ: **«إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»** [1].

فالأخلاق تمثل الهدف الأسمى الذي يهدف الفرد المسلم والمجتمع المسلم إلى تحقيقه ولذلك فإن القانون الإسلامي لا يقر أمرًا يخالف مقتضى الأخلاق الكريمة التي ينادي بها الإسلام والصحابة رضي الله عنهم مكثوا زمنًا طويلاً تحت تربية محمد ﷺ يربيهم على الأخلاق الإسلامية ويزكيهم ويؤدبهم بها، قال تعالى: {هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾} [الجمعة: ٢].

يربيهم على الزهد والورع، والعفاف والأمانة، والوفاء بالعهد، والإيثار بالنفس، وخشية الله، وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها، فكانوا لا يتهافتون على الوظائف والمناصب تهاتف الفراشة على الضوء، بل كانوا يتدافعون في قبولها ويتحرجون من تقلدها، فضلاً عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة، فإذا تولوا شيئًا من أمور الناس لم يعدوه مغنمًا بل يعدوه أمانة في أعناقهم وامتحانًا من الله، وهم يعلمون أنهم موقفون عند ربهم مسؤولون عن الدقيق والجليل من أعمالهم، لقد كان أصحاب النبي ﷺ يمتازون بأنهم كانوا جامعين بين الديانة والأخلاق والقوة السياسية.

(١) رواه الترمذي.

سابعا، أنهم أصحاب أمانة في ولاياتهم.

لأن الولاية أمانة يجب أداؤها، قال ﷺ لأبي ذر في الإمارة: «**إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه بها**» [(١)]، فيجب على كل من ولـيَّ شيئًا من أمر المسلمين أن يعرف حق الله عز وجل فيها وحق العباد ولا يسألها حتى يعان عليها كما قال ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «**يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها**» [(٢)].

وإن سألها لابد أن يؤدي حق الله فيها كما في فعل يوسف عليه السلام: {قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾} [يوسف: ٥٥]، سأل العمل لعلمه بقدرته عليه وأمانته فيه ولما فيه من المصالح للناس، وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات لما يستقبلون من السنين التي أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له.

ويوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح، وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه، فإنه لم يكن هناك غيره، وكذا الحكم اليوم، وكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء الحسبة، ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام: {إِنِّي حَفِيظٌ

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.

عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، ولم يقل: (إني حسيب كريم)، فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والكرم.

ثامناً: أنهم أصحاب مسؤولية يسألون عنها أمام الله يوم القيامة

كما قال ﷺ: «ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راعي، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عن رعيته ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن راعيته» (١).

والراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره، وهو مطلوب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه، فالراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم يختار لها أطيب المراعي، ويقوم على حفظها، وكذلك راعي الرعية.

وهذا فيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه في دينه ودنياه، وفي هذا وجوب النصيحة على الوالي لرعيته، والاجتهاد في مصالحهم، والنصيحة لهم في دينهم ودنياهم، قال ﷺ: «ما من عبد يسترعيه الله رعيه يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة» (٢).

وهذا فيه أن كل من تولى من أمر أحدٍ شيئًا فهو مطالب بالعدل فيه وأداء الحق الواجب والقيام بمصلحة ما تولاه.

قال أبو مسلم الخولاني لمعاوية رضي الله عنه: لا تحسب أن

(١) رواه البخاري، ومسلم في كتاب الإمارة ١٨٢٩.
(٢) رواه مسلم.

الخلافة جمع المال وتفريقه إنما هي القول بالحق والعمل بالمعدلة، وأخذ الناس في ذات الله.

تاسعا: أنهم يقدمون الأصلح والأكفأ في الولاية للذي يقوم بأصلاح البلاد والعباد.

ويجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل قال ﷺ: **«من ولي من أمر المسلمين شيئًا، فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله»** (١).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من ولي من أمر المسلمين شيئًا فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين، وهذا واجب عليه.

فيجب على كل من ولى شيئًا من أمر المسلمين أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه، ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو سبق في الطلب بل يكون ذلك سببًا للمنع، كما قال ﷺ: **«إنا لا نولي هذا الأمر من طلبه»**، وفي رواية مسلم: **«إنا والله لا نُوَلِّي على هذا العمل أحدًا سأله ولا أحدًا حرص عليه»** (٢).

فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لأجل قرابة بينهما أو صداقة فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته، وخان المسلمين، قال تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال: ٢٧]، فهذا وعيد شديد على أئمة الجور الذين خانوا الله ورسوله وخانوا المسلمين، فمن ضيع من استرعاه الله أو خانهم

(١) رواه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد.
(٢) رواه مسلم ١٧٣٣.

أو ظلمهم فقد توجه إليه الطلب بمظالم العباد يوم القيامة، فكيف يقدر على التحلل من ظلم أمة عظيمة؟

عاشرًا: أنهم أصحاب رفق بالرعية يرفقون بهم ويسيرون بهم السيرة الحسنة، قال ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليه فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرق بهم فارفق به»[1].

فهذا فيه الحض على الرفق والنهي عن المشقة وهو الذي أمر الله به نبيه ﷺ ووصفه به وحض عليه ﷺ في غير حديث وأثنى عليه، وأنه يثيب على الرفق ما لا يثيب على المشقة، والمشقة: المضرة والجهد.

ودخل عائذ بن عمرو، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ على عبيد الله بن زياد فقال: أي بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن شر الرعاء الحطمة»، فإياك أن تكون منهم، فقال له: اجلس، فإنما أنت نُخالة أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: وهل كانت لهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم[2].

شر الرعاء الحطمة: يعني الذي يكون عنيفًا برعيه الإبل يحطمها، يلقي بعضها على بعض، قال النووي هو العنيف في رعيته، لا يرفق بهم في سوقها ومرعاها بل يحطمها في ذلك، وفي سقيها وغيره، ويزحم بعضها ببعض بحيث يؤذيها ويحطمها.

قوله: وهل كانت فيهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم، هذا رد صحيح وكلام حق، فإن أصحاب محمد ﷺ كلهم

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة ١٨٢٨.
(٢) رواه مسلم ١٨٣٠.

صفوة الناس وفضلاؤهم، وأفضل من يأتي بعدهم كلهم معدلون قدوة وإنما جاء التخليط والفساد فيمن بعدهم [١].

وهذا من أعظم وأبلغ الذواجر عن المشقة على الناس وأعظم الحث على الرفق بهم.

قال النووي: وهذا من جذل الكلام وفصيحه وصدقه الذي ينقاد له كل مسلم، فإن الصحابة رضي الله عنهم كلهم هم صفوة الناس وسادات الأمة وأفضل ممن بعدهم وكلهم عدول قدوة، لا نخالة فيهم وإنما جاء التخليط ممن بعدهم وفيمن بعدهم كانت النخالة [٢].

* * *

(١) إكمال المعلم ٦١/٢٣٢.
(٢) النووي ١٢/٢١٦.

obeikandl.com